الخطاب الاعتذاري النثري في العصر العباسي

الدكتور منذر رديف داود
كلية الآداب- جامعة بغداد

مدخل نظري

الاعتذار لغة:

الاعتذار مصدر، فعله(عذر) و للفعل (عذر) معان كثيرة في مدلولات اللغة، من أهمها ما ورد في لسان العرب (العذر الحجة التي تعتذر بها، و الجمع أعذار، يقال: اعتذر فلان اعتذاراً و عذرة و معذرة، والاسم المعذرة بتثليث الذال)[1].

اشتقاق الاعتذار:

في اشتقاق الاعتذار ثلاثة أقوال:

(أحدهما: أن يكون من المحو: كأنك محوت آثار الموجدة، من قولهم: اعتذرت المنازل: إذا درست، وأنشدوا قول ابن الأحمر:

أم كنت تعرف آيات فقد جعلت أطلال إلفك بالود كاء تعتذر

والثاني: أن يكون من الانقطاع كأنك قطعت الرجل عما أمسك في قلبه من الموجدة، ويقولون: اعتذرت المياه إذا انقطعت. وأنشدوا للبيد:

شهور الصيف واعتذرت إليه نطاق الشيطين من السماء*

والقول الثالث: أنه من الحجر و المنع ، قال أبو جعفر، يقال: (عذرت الدابة) أي جعلت لها عذرا يحجرها من الشراد . فمعنى اعتذر الرجل: احتجز وعذرته جعلت له بقبول ذلك منه حاجزا بينه و بين العقوبة و العتب عليه)[2].

و لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاعتذار في الاصطلاح الأدبي: تنّصل المرء مما نُسب إليه إن صدقاً ً وإن كذباً ً واحتجاجه لنفسه في البراءة أو ضدها على السواء.

الاعتذار في الأدب العربي:

عرف فن الاعتذار في أدبنا العربي قديما تلميحا أو تصريحا عند بعض الشعراء. ولعل الاعتذار يحوي على نوع من المذلة و الضعف قل في العصر الجاهلي ولاسيما عند الشاعر الذي كان يسكن في البادية، ربما لأنه رأى فيه نوعا من الخنوع و الاستسلام وهذا يتعارض مع كبريائه وكرامته. ومعروف أن النابغة الذبياني هو فارس هذه الحلبة ومؤسس هذا الفن وقد سلك مسلك أستاذه عدي بن زيد[3] وقديما قالوا (ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنبا). وهذا الشاعر محمود الوراق يقول:

إذا كان وجه العذر ليس بيّن فإن اطرح العذر خير من العذر[4]

ويرى د.إبراهيم عوضين (طأطأ العربي في بعض الحضر رأسه تحت إغراء المنح والعطايا وجرى لاهثاً وراء الملوك والأمراء عندئذ هانت على العربي نفسه وضاعت قيمة اللائقة بين ما ضاع في غمار حياته الجديدة...)[5]

إن العربي لم تهن نفسه ولم تضع منه قيمه العليا التي آمن بها والتي كانت تعتمل في صدره في غمار الحياة الجديدة، وان كان عدد من الشعراء أو الأدباء قد انضموا في هذا المضمار لهذا السبب أو ذاك لا يعني إطلاقا أن كل الأدباء العرب في ذلك الوقت قد ساروا في هذا الطريق وسلكوا هذا المسلك، ذلك أن للمجتمع العربي تقاليده وعاداته في كل العصور الأدبية حظيت بالاحترام والتقدير حتى غدت تلك التقاليد من إباء و شجاعة ووفاء ونكران ذات وكرم وغيرها كثير مسلمات اجتماعية وفكرية، ولربما حدثت معارك لاتهام بعض القبائل العربية بعضها الآخر بالخروج عن تلك المسلمات أو لاتهامها بضعف تلك العادات والتقاليد.

خطا الاعتذار في العصر العباسي الأول خطوات وئيدة بعض الشيء حيث أصبح شائعا بين بعض الشعراء والكتاب رغم صعوبته على النفس ـ ومرد ذلك فيما نعتقد أن بعضا من خلفاء بني العباس قد أغدقوا المال على الشعراء والكتاب ظنا منهم أنهم همزة وصل بينهم و بين الرعية وهم بلا أدنى شك وسيلة إعلام ناجحة.

سار النثر في طريق الرقي الحضاري[6] والزهو كأخيه الشعر العربي، ومن هذا ارتقى فن الاعتذار النثري.

والاعتذار يتصل اتصالاً وثيقاً بالنفس البشرية، وهو أدب يشير إلى لباقة المعتذر وحسن تنصله وتخلصه، وكما يشير إلى حصافة رأي العافين وسعة أفقهم ورحابة صدورهم.

ويحاول الباحث هنا أن يقف على نماذج من فن الاعتذار في العصر العباسي الأول محاولا إبراز النواحي الفنية والجمالية فيه، ولا يدعي الباحث انه أحاط به إحاطة كاملة، إنها محاولة وقدر المحاولة أن تصيب وان تخطئ، وسنحاول دراسة فن الاعتذار في نماذج من نثر العصر العباسي الأول وفق الصورة الآتية:

الاعتذار (الشفوي) بالاقتباس من القرآن الكريم:

قد يستخدم المعتذر شيئاً من القرآن الكريم وهو يعتذر شفاهاً، وربما تسعفه الذاكرة بشيء منه للاحتجاج به، وهذا ما يسمى بالاقتباس وهو في الآن نفسه، يقدم انطباعا طيبا عن المعتذر، قد يعطيه قوة تأثيرية على عاطفة المخاطب، ويحرك فيه نزعة دينية تحثه على العفو.

فمن لطيف الاعتذار في هذا المجال طلباً للعفو بالاقتباس من القرآن الكريم: ما جرى بين أحمد بن يوسف ووفد من البصريين شكوه إلى المأمون (تولى احمد بن يوسف الكاتب صدقات البصرة فجار فيها وظلم، فكثر الشاكي له والداعي عليه ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلاً من جلة البصريين فعزله المأمون، وجلس لهم مجلسا خاصا وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم، فكان مما حفظ من كلامه أن قال: يا أمير المؤمنين لو أن أحدا ممن تولى الصدقات سلم من الناس لسلم الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل: **(ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)**[التوبة:58]. فأعجب المأمون جوابه واستجزل مقاله وخلى سبيله[7] والآية الكريمة التي أسعفته بها الذاكرة تكاد تنطبق تماما في مثل هذا الموقف.

ويؤكد ذلك ما تواتر في تراثنا العربي الإسلامي: من أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يقسم غنائم غزوة حنين فجاءه رجل من المنافقين يسمى (ذو الخويصرة) فقال: اعدل يا محمد فانك لم تعدل. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ويلك إن لم اعدل فمن يعدل.

واضح أن موقف أحمد بن يوسف الكاتب يوحي بالثقافة الدينية والتاريخية. وتذكر مصادرنا العربية انه (دخل أبو العيناء يوما على المتوكل، فقال له المتوكل: قد اشتقتك يا أبا العيناء فقال: يا أمير المؤمنين: إنما يشتاق العبد مولاه، والمولى

متى أراد عبده استدعاه، قال: فلم لم تكثر من زيارتنا؟ قال: سرق حماري يا أمير المؤمنين. قال وكيف سرق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك. قال: فلم لم تأتنا على غيره؟ قال: يمنعني من ذلك قلة يساري ومنة العواري وذلة المكاري. فقال له المتوكل: ما أحسن خصالك لا سوء فيك. قال: يا أمير المؤمنين: أنا خزانة الخير والشر والله تعالى قد مدح وذم فقال في مدحه: (نعم العبد انه أواب) **{ص:38}** وقال في ذمه :(هماز مشاء بنميم)**{القلم:68}** وقال الشاعر:

إذا أنا لم امدح على الخير وأهله ولم اذمم النكس اللئيم المذمما

ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشقى لي الله المسامع والفما[8]

أبو العيناء هنا يعتذر عن زيارة المتوكل اعتذار لطيفاً ولعلنا نستطيع أن نقول: إن هذا النوع من الاعتذار هو (الاعتذار الباسم).

وهذا موقف آخر من مواقف الأدب الاعتذاري بالاقتباس من القرآن الكريم لتقوية الاعتذار وتأييده (قال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له وإيقادك لناره، قال: يا أمير المؤمنين والله لإجرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمي إليك ولرحمي أمس من أرحامهم، وقال يوسف لإخوته (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين) **{يوسف:12}** وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه المنة وممتثل لها، قال : هيهات تلج إجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجرمك في إسلامك وفي دار خلافتك، قال: يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم أحق بإقالة العثرة وغفران الزلة من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك يقول الله تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) إلى قوله تعالى :(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)**{آل عمران:134،133}.**

فهي للناس يا أمير المؤمنين سنة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف. قال: صدقت، اجلس وريت بك زنادي...)[9]

لا شك أن الاقتباس من القران الكريم واحد من أنواع البديع الذي يقوي المعنى ويزيده جمالا ورشاقة فضلا عن انه يزيد في القبول ويبعث في نفس المخاطب شعورا بالارتياح النفسي وزيادة في الثقة في نفس المعتذر.

والاقتباس من القران الكريم جائز وقد أباحه أهل البلاغة بتوافر شرطين: الأول أن يكون مطابقا لمقتضى الحال، والثاني أن تكون كيفية طرق دلالته معلومة الوضوح والخفاء[10].

وفي هذه الحالة يكون المقتبس من القران الكريم كالمغترف من بحر لا ينفد إطلاقا والنصوص المقتبسة من أدبنا العربي القديم التي اقتبست من القران الكريم في تضاعيف النص يؤكد أن اقتباسهم لم يكن آنيا وعارضا. لقد بلغ به المعتذر في تأدية المعنى المقصود من حسن اللفظ ورقته وعذوبته وتوفية المعنى بحسب المقام وساعد الاقتباس أيضا على الارتياح النفسي لدى المعتذر إليه.

الاعتذار التحريري:

ضرب من ضروب التعبير الأدبي، قد يلجا المعتذر إلى كتابة أعتذاره ويكون الاعتذار التحريري عن طريق الرسائل والتوقيعات، ومن هذا النوع على سبيل المثال لا الحصر (لما أهدر المأمون دم إبراهيم بن المهدي، عندما ادعى الأخير الخلافة لنفسه، فهرب مستتراً ست سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام استشار المأمون المعتصم والعباس بن المأمون فأشاروا بقتله، علم إبراهيم بن المهدي بذلك، فكتب إبراهيم بن المهدي إلى الخليفة المأمون يعتذر بقوله: (يا أمير المؤمنين: ولي الثأر محكم في القصاص "والعفو اقرب للتقوى" ومن ساقه الاعتذار بما مد له أسباب الرجاء والسلامة أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذي قدر دونك فان غفرت فبفضلك وان أخذت فبحقك. قال أيضا: (يا أمير المؤمنين: إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة إلا انك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث عودك الله من العفو، فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك.. انه وان بلغ بي جرمي استحلال دمي فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغاني عفوه ولي بعدهما شفعة الإقرار بالذنب وحق الأبوة بعد الأدب... فوقع إليه المأمون في كتابه: (إني وجدت قدرتك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك والقدرة تذهب الحفيظة والندم توبة وبينها عفوا الله وهو أفضل ما يسال...)[11].

الرسائل والتوقيعات لون من ألوان النثر الأدبي وقد نشطت في العصر العباسي الأول نشاطاً كبيراً، وبرز عدد غير قليل من الكتاب في هذا الضرب الأدبي حتى بز بعضهم الشعراء، وهي تحمل من التصوير والخيال ما تؤثر تأثيرا ايجابيا في نفسية المعتذر إليه وعاطفته. هذا سعيد بن عبد الملك يكتب رسالة معتذرا (اكره-أطال الله بقائك-أن أضعك ونفسي موضع العذر والقبول فيكون احدنا معتذرا مقصرا والآخر قابلا متفضلا، ولكن اذكر ما في التلاقي من تجديد البر، وفي التخلف من قلة الصبر واسأل الله تعالى أن يوفقك وإيانا لما يكون منه عقبى

الشكر)[12] وله معتذراً (لحظك الله بمغفرته وعاد عليك وعلينا بعفوه فنسال ما لا يقبله على العلم والقدرة غيره، ولو بدلت مكان سوء الظن أحسنه وتيقنت أن قليل ما يسلم بصديقي مما يطرق عينه، ويؤذيه سماعه، دون ما يخاف من لواحق عيبه يزاول خلدي الاهتمام به، حتى يجعل الله مخرجا كنت روحت عن قلبك وعني في استيطانك)[13].

وكتب محمد بن الليث رسالة معتذراً: (كيف يسعك أن تأخذني بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك اخذي ولا عقابي عليه ولو كانت العقوبة على الذنب الكامنة في سويداء القلب واسعة لك حكم الرب لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما بنقل في القلوب التي لا تثبت على حال...)[14].

وهذا الفيض بن أبي صالح وزير المهدي يوقع في اعتذار (التوبة للمذنب كالدواء للمريض)[15] انه تشبيه جيد لان التشبيه اقرب الصور إلى النفس وأشدها صلة بالتصوير ولأنه (أقدم صور البيان ووسائل الخيال وأقربها إلى الفهم والأذهان)[16]... ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا هو أكثر كلامهم[17].

قبول الاعتذار بشفاعة:

قد يقبل المعتذر إليه الاعتذار بشفاعة تقدم إليه من رجل يحترمه، ومن هذا القبيل ما روى عن الخليفة المهدي، وقد أهدر دم رجل من أهل الكوفة كان يسعى في فساد دولته، وخصص لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم، ثم ظفر بالرجل وجيء به إلى الخليفة المهدي، ثم استجار ب(معن) وكان (معن) مقربا من الخليفة المهدي، فقبل الخليفة المهدي اعتذار الرجل وشفاعة (معن) له وأعطى الرجل مائة ألف درهم وقال له: خذ صلتك والحق بأهلك وإياك مخالفة خلفاء الله تعالى[18].

وهذا اتجاه طيب لا يغفل صداه في النفس البشرية وهو في الوقت نفسه يدل على حصافة الرأي وحسن التعليل واحتراما للعلاقات الإنسانية التي تربط بين الناس.

وقبول الاعتذار بشفاعة على نوعين:

الأول: عن طريق الكتابة من ذلك - على سبيل المثال- ما كتبه إبراهيم ابن عباس شفاعة لرجل، (ممن يزكو شكره ويحسن ذكره ويعنيني أمره والصنيعة عند واقعة موقعها وسالكة طريقها)[19].

وهذا محمد بن عبد الملك بن الزيات يكتب شفاعة لرجل يعرفه فيقول(.. ما اذكر أن ينتفع بي من توسل بنبي، إلا انه من ادعى قرابة له آما من ذلك استعمال الشفاعة في أمره أولى)[20].

أما أم الشريف فتكتب كتاباً في ابن أخيها محمد بن احمد بن عيسى عندما خرج على المعتضد تتشفع له وأرسلته بيد شعلة بن شهاب اليشكري فسار بالكتاب إلى المعتضد، فأعجب المعتضد بالكتاب وأمره أن يحمل إليها تخوتا من الثياب وجملة من المال والى ابن أخيها وشفعها في كثير من أهلها ممن عظم جرعه واستحق العقوبة عليه[21].

أما سعيد بن عبد الملك فهو الآخر يكتب شفاعة لرجل يعرفه. لإطلاق سراحه يقول:(معرفتي انك لا تجاوز في العقوبة سبيلها من واقع الأدب بالحق تحملني على مسائلتك ما أنت موجب له، والذكرى تنفع المؤمنين، ولولا ذلك لاستغنى صاحب كتابي عنه، فان كان ذنبه صغيراً فالعقوبة التي تخرجه من حبسه إلى مدة ذنبه فالحق يخرجه وكتابي متغاض لك)[22].

الثاني: قد يلجا المعتذر إلى موازنة طريقة لإشباع رغبة المخاطب في الانتقام والعفو الذي له أجره عند الله سبحانه وتعالى وهو الاعتذار بشفاعة شفاها.

من ذلك ما كان بين تميم بن جميل السدوسي والمعتصم (فقد خرج تميم بن جميل السدوسي على المعتصم فجيء به أسيرا فادخل عليه في يوم موكب، وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما ودعا بالسيف... فلما مثل بين يديه نظره المعتصم فأعجبه حسنه وقده ومشيته إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكر فيه ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال: يا تميم إن كان لك عذر فأت به فقال يعتذر: أما إذا أذن أمير المؤمنين في الكلام فاني أقول: الحمد لله يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث الإسلام، والمسلمين واخمد بك شهاب الباطل وأنار لك سبيل الحق، إن الذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة وايم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك وأنت إلى العفو اقرب وهو بك أشبه وأليق وانشد شعراً...فبكى المعتصم، ثم قال إن من البيان لسحرا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا تميت والله يسبق السيف العذل وقد وهبتك لله... وعفوت عن زلتك، ثم عقد له ولاية على عمله وخلع عليه وأعطاه خمسين ألف دينار)[23]..

ويذكر صاحب العقد الفريد ما كان بين المنصور والفرج بن فضالة بقوله: اقبل المنصور يوما راكبا والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب ببغداد فقاوم الناس إليه ولم يقم فاستشاط غيضا وغضبا ودعا به فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى لم فعلت ويسألك عنه لم رضيت وقد كرهه صلى الله عليه وسلم فسكن غضبه وقربه وقضى حوائجه)[24].

وقد تكون لفتة سامية من المعتذر إليه أن يصفح عن المسيء من ذلك ما حدث بين موسى الهادي ورجل إذ (أتى موسى الهادي برجل يقرعه بذنوبه فقال :يا أمير المؤمنين: إن اعتذاري مما تقرعني به رد عليك، وإقراري به يلزمني ذنبا اجنيه ولكني أقول:

(فان كنت ترجو في العقوبة راحة فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر)[25].

جواب الاعتذار:

حث الإسلام على إيثار العفو على العقوبة وذلك لبناء الأنموذج الإنساني الفريد في خلقه وتعامله مع الناس موضوعا وتفكيرا وسلوكا.

والمعتذر لا يرى غضاضة في أن يعفى عنه، ويبقى يتلظى وهو ينتظر الجواب من المعتذر إليه ،حتى إذا وصله جواب الاعتذار استراح وأراح وسكنت نفسه وهدأت أوصاله.

هذا أبو علي البصير كتب جواب الاعتذار جدد فيه عهد المودة والإخاء بقوله (بلغني اعتذارك، ووفى مني تطلعاً شديداً إليه، ومكاناً قد قدمت المواطنة له عندي، فسكن النفرة واذهب الوحشة وجدد عهد المودة وأوجبت لك به التطول والمنة واليد المشكورة ولم أكن كالمتعتن المستحب الذي يطلب العلة ويغتنم الزلة ويصدف عن الحجة وتضيق عنه المعذرة وما نظرت لك إلا على نفسي ولا بدأت إلا بخص فيما استثبت من رأيك وحاميت عليه من أخانك والله اسأل حسن المدافعة عنك وامتناعي بما وهب لي منك والسلام)[26].

وكتب عبد الله بن المعتز جواباً لمعتذر قبل اعتذاره بقوله (كيف أرد عذر من لا تهتدي إليه الموجودة ولا تتسلط عليه التهمة[27].

والطريف في هذا الأمر انه قد لا يقبل العذر لرداءة خط المعتذر ،وفي هذا المجال، اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله من شيء بلغه عنه ،فرأى خطه قبيحاً، فكتب له (أردنا قبول غدرك، فاقتطعنا عنه ما قابلنا من قبيح خطك ولو كنت

صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك، او ما علمت حسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجة ويمكن له درك البغية)[28].

وكتب سعيد بن حميد جواباً لمعتذر وقد سامحه وعفا عن زلته بقوله (وصل كتابك- أكرمك الله تعالى- الحاضر سروره اللطيف موقعه، الجميل صدوره ومورده، الشاهد ظاهره على صدق باطنه نحن- أعزك الله- نجعل عزاءك الاعتراف بفضلك ومجازاتك التقصير دونك ونرى أن لا عذر في التخلف عنك، كنت سامحت على العذر قبل الاعتذار..)[29].

قبول الاعتذار والصفح عن المعتذر يدل على رحابة الصدر وسعة البال والحلم، كما يفهم في الوقت نفسه على أن التسامح والعفو عند المقدرة سمة بارزة عندهم.

الخصائص الفنية لأدب الاعتذار:

لما كان الاعتذار غرضا من الأغراض الأدبية- بتباين الآراء في ذلك-لابد أن ينفرد بخصائص تميزه عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى وربما يلتقي مع بعضها في الخصائص العامة، ومن خلال النصوص السابقة، ربما نحدد أهم سماته وخصائصه:

أولا- من الناحية النفسية:

لابد أن نقرر أولا أن (فن الاعتذار) تتميز بقلته- سواء أكان شعراً أم نثراً- وسبب ذلك فيما نرى هو صعوبته على النفس البشرية فالنفس الأبية تأبى أن تعتذر وإذا شاءت الظروف لهذا السبب او ذلك أن يعتذر صاحب النفس الأبية والجاته الحاجة إلى الاعتذار شق ذلك وصعب عليه وأصبح صدره ضيقا وحرجا وتضيق عليه الأرض بما رحبت كأنما يصعد في السماء. ارتباط فن القول بالمشاعر النفسية ليس بدعا ولا شيئاً جديداً في الفكر العربي وأظنه كذلك في الفكر العالمي، فابن قتيبة مثلا عرف الناحية النفسية فذكر أن للشعور (دواعي تحت البطيء وتعبث المتكلف منها:الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب)[30].

والجرجاني أشار إلى الطبع والخلق بقوله (فان سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة..... ترى الجافي كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى

انك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته في جرسه ولهجته فان اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلى القول فقد جمعت لك الرقة في أطرافها)[31].

لعل في الاعتذار راحة نفسية للمخاطب، وان لم يكن هناك ذنب بالمعنى المعروف للذنب، أما مع الذنب فالراحة العظمى تكون في الاعتذار (فنفسية الغاضب تحتاج إلى أن يبذل لها المعتذر من نفسه ألواناً من الترضي تظهر في تكبيره وتقديره والتفرغ إليه والتماس العفو منه)[32].

وكثيراً ما يعتمد المعتذر على التهويل والمبالغة فيبالغ في مسكنته وضعفه أمام المعتذر إليه فيشعره بعظم سطوته ويبالغ في الأثر النفسي الذي سببه هجره او وعيده وما ينتج عن ذلك من فزع وخوف واضطراب نفس وقلق يعمد إلى وصف كل ذلك عامدا متعمدا طلبا للراحة النفسية للمعتذر إليه، كتب سليمان بن وهب معترفا بذنبه كي تأخذ المعتذر إليه للراحة النفسية بقوله (أنا مقر معترف فما نراك صانعا بمن أعلقك زمانه وأمكنك حكمك في أمره معاقباً له او متفضلا بالعفو عنه لكني ارج وان استقبل طاعة لا تمتنع عن شكرها واغتفار كل تقصير خلا في جنبها فالأيام بما تحب أمامك)[33]. وقد تفعل الأريحية العربية فعلها عند بعض الناس فيقبل اعتذار المعتذر، ما دام المعتذر مقراً معترفاً بالذنب يطلب العفو، وهم يرون من اعتذر إليه فلم يقبل العذر فقد تحمل وزراً عظيماً بل أساء إلى المعتذر وهذا شاعر يقول عن هذا الاتجاه او المبدأ:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب[34]

قد يكون الإقرار بالذنب والاعتراف بالزلة مع طلب العفو عنها راحة نفسية للمعتذر إليه، قال رجل يعتذر (أنا من لا يحاجك عن نفسه ولا يغالطك في جرمه ولا يلتمس رضاك إلا من عفوك ولا يستلطف إلا بالإقرار بالذنب ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالزلة)[35].

ويرى ابن رشيق إذا ما أوقع القدر المرء في أمر يحتاج أن يعتذر منه، (فليذهب مذهباً لطيفاً، وليقصد مقصداً عجيباً، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه وكيف يمسح أعطافه ويستجلب رضاه، فان إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل الخطأ، وحقه أن يلطف برهانه مدمجاً في التضرع.... وإعادة النظر في الكشف عن كذب الناقل ولا يعترف بما لا يجنه.... ويحيل الكذب على الناقل الحاسد)[36].

ثانياً- الخصائص الأسلوبية:

تتباين الألفاظ والعبارات وتختلف تبعا للموضوع او الغرض الذي يتناول والحالة النفسية والتجربة فالنسيب يحتاج إلى الألفاظ التي تغلب عليها الرقة والعذوبة أما الفخر فيجب أن تكون ألفاظه جزلة وفخمة وعباراته قوية ومتينة تتفق مع وحالة الفخر والاعتذار بالنفس[37] والأسلوب (هو المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه)[38] و(لكل فن من الكلام أساليب تختص به)[39].

ولفن الاعتذار خصائص أسلوبية تميزه عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى، لعل من أبرزها:

1. الأسلوب وبساطته:

الوضوح في أسلوب الاعتذار والابتعاد عن الغريب والقصد إلى يسره سمة بارزة، وهو أدب يجمع بين الأداء الروية- غير التكلف- في الصنعة بسبب أن المعتذر يعبر عن نفسه تعبيراً مباشراً دونما حاجة إلى التعميق والتحليل والتخيل لأنه يدور حول الاعتراف بالذنب والتنصل منه التماساً للعفو، ويكون سلسا عذبا ذلك أن الاعتذار نوع من دفع الأذى عن النفس و يرى الجاحظ (فنعم البديل عن الزلة الاعتذار وبئس العوض من التوبة الإصرار)[40].

ويظهر وضوح الأسلوب ويسره مع قوته التأثيرية المعنوية في قلب المعتذر ،من ذلك ما كتبه سعيد بن عبد الملك معتذرا (كتبت على شغل في قطع من القرطاس ولم يقطع بي حسن الظن بك في قبولك العذر وتحسينك ما أنت أهل لتحسينه فانك تقبل دون حقك وتهب الذنب فيه فيكون شكرك جاريا على سبيلي كلاهما يبين لك عن فضله ويوجب لك ما لا يقصر معه إلا مغبون الحظ خسيس النصيب)[41].. يبني المعتذر أسلوبه غالباً على جمل قصار فيها قرب ووضوح وصياغة الأسلوب تنساب هادئة يجمع إلى سلامته متانة وقوة يعطي دلالته دون ظلال ويكون سلساً وتعبيراً عذباً واستفاضة في الوصف والتصوير ويتضح بساطة الأسلوب في قول ابن مكرم (لا تتركني معلقا بحاجتي فالصبر الجميل خير من المطل الطويل)[42].. والمعتذر عادة يطوع العبارات بأسلوب سهل رصين وواضح أملا في بلوغ هدفه غالبا ما يصيب.

2. الرقة اللفظية:

في أدب الاعتذار رقة لفظية يعتمد على اختيار الألفاظ ناعمة الجرس بعيدة عن الجفوة والبداوة والمعتذر عادة لا يهتم كثيرا بإبراز براعته اللغوية إلا ما جاء عفو الخاطر لان جل همه وغاية مراده هو إيصال المعنى المتمثل في قبول عذره من أوضح طريق وأيسر سبيل.. استغلال الأحداث التاريخية والنزعة الدينية ومحاولة الاقتباس من القران الكريم كل هذه محاولات يعمد إليها المعتذر عمداً لكي تحفل كلماته بشيء من رشاقة اللفظة ورقتها وتكون عذبة ندية متلاحمة النسج واضحة البيان ولعل محاولة الاقتباس من القران الكريم تعني:

-محاولة الرقة والتلطف في اختيار الألفاظ الموحية العذبة الرقيقة.

-محاولة التأثير في عاطفة المعتذر إليه وهي محاولات تعني لطيف التوصيل إلى قلب المعتذر إليه والمبالغ في ذلك ويظهر حسن التنصل في قول ابن مكرم (لاق عظيم أملي فيك ما اتيت فيما بيني وبينك ذنبا مخطئا لا متعمدا ولعل فلتة لم الق لها بالا فأوطئ لها اعتذارا وان تكن فبغية حاسد زخرفها على لسان واش نبذها إليك في بعض غراتك أصابت مني مقتلا وشفت فيك غليلا)[43].

استخدام الرقة اللفظية في طلب الاعتذار تلطف العفو وتحرك أوتار قلب المعتذر إليه، فقد يقبل العذر على إطلاقه ما دام قد أتى -المذنب- مقراً بالذنب طالباً بالعفو ذلك إن (لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ)[44].

3. اختيار الألفاظ:

الرقة المعتمدة يتبعها تعمد اختيار الألفاظ الموحية الناعمة الجرس ،ففي رقة الجرس والضرب بمهارة على أوتار القلب استهواء لسمع الخاطب ومناجاة روحه وتنساب هذه الألفاظ في إيقاع موسيقي جذاب مع بناء متوازناً او قريباً من التوازن مؤكداً اعتذاره بوسائل مختلفة، كتب سليمان بن وهب معتذراً (أنا مقر معترف فما نراك صانعا بمن أعلقك زمانه وأمكنك حكمك في أمره معاقباً له او متفضلا بالعفو عنه لكني أرجو أن استقبل طاعة لا تمتنع عن شكرها واغتفار كل تقصير خلا في جنبها فالأيام بما تحب أمامك)[45].. بما أن الصورة الأدبية - أي صورة أدبية- وليدة الانفعال والحس، فان انفعال المعتذر وصورته تكاد تنحصر في الرهبة على إيحاء اللفظ ومكنونه وإحساس المعتذر وتوفيقه في اختيار الألفاظ المعبرة الموحية. وعادة يختار المعتذر الألفاظ القريبة الدلالة الواضحة المعنى ويستخدم اللفظ والتراكيب استخداماً سليماً وبهذا يكتسب التعبير قدرة على إثارة عاطفة المعتذر إليه والتأثير فيه تأثيراً مباشراً ومعناه واضحاً لا لبس فيه لان

المعتذر يحرص أن يكون اللفظ رشيقاً عذباً وفخماً سهلا ويكون معناه ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا[46].

وحن اختيار الألفاظ المعبرة عن الفكرة - الاعتذار- واضح وجلي وتعبر عن موقف شعوري واحد ذلك لأنه (أسلوب قام على هجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافة التي تنمو على ذوق أهل الحضارة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته)[47].

وعدم وضوح دلالة الألفاظ دلالة قاطعة يؤدي إلى مداخلة الكلام بعضه في بعض وركوب بضعه لبعض كما قرر الآمدي[48].

ـــ. الاعتماد على القسم:

يكثر القسم في أدب الاعتذار وتكرار القسم -أحيانا- والمعتذر في قسمه يحرك عاطفة المعتذر إليه ويؤكد طلب العفو عنه وربما يعلن البراءة عما نسب البيه من قول او فعل، لأن العفو من شيم الرجال، فهذا إسحاق بن عباس يقسم بالله تعالى للخليفة العباسي المأمون بقوله (يا أمير المؤمنين والله لجرم قريش إلى رسول الله أعظم من جرمي إليك....)[49]... يقسم بما لا يدع مجال للشك والريبة دفعة التهمة ،ومن ناحية أخرى يشعر المخاطب انه لا يكذب حتى لا يعاقب ،وشأن الذي يدافع عن نفسه أن يكرر قسمه تأكيدا لبراءته وليشهد الله سبحانه وتعالى على صدق قوله وتقوية لحجته ويسلم نفسه من العقاب إن صحت خيانته.

ويستعمل القسم في فن الاعتذار ليدفع المتهم التهم وليؤكد في الوقت عينه قلقه وهمه وعدم خيانته، وهذا أبو علي البصير يقول مؤكدا هذا المعنى (ذكرت – أعزك الله- في كتابك ما يعلم الله اغتمامي به، واستكانتي له وقلقي عندما ورد علي منه..... والعالم بالسرائر والمطلع على الضمائر يشهد - وكفى به شهيدا- إني ما أقف على ما ذكرت ولا أتوهمه..... و والله الذي لا اله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما كتبت إلا بالحقيقة عندي....)[50]. وعبد لله بن المعتز يقسم غير حانت للقاسم بن عبد الله في اعتذاره بقوله (ترفع -أعزك الله- عن ظلمي إن كنت بريئا وتفضل بالعفو عني إن كنت مسيئا فوالله لأطلب غفر ذنب لم اجنه)[51]... العفو عن المسيء مذهب حث عليه الإسلام ودعت الإنسانية إليه وفي الاعتذار المؤكد بالقسم الدعوى إلى قبول الاعتذار دون كب ماء الوجه والمعلوم أن الكلمة لها أثرها وسحرها في العربي الذي تهزه الكلمة الطيبة يقولها الجاني لينال العفو

والصفح وقد وردت كثيراً من الحكايات العربية في هذا المضمار، فقد عقد الجاحظ -مثلا- في كتاب البيان والتبيين باب ذكر فيه أن: اثر السيف يمده بأثر الكلام[52].

ثالثا- الصدق الفني:

انتقاء الألفاظ واختيارها اختيار موفق ينتج عن صدق العاطفة، والعاطفة أي عاطفة ركن مهم من أركان الأدب. وكل موقف من مواقف الاعتذار يعد تجربة مستقلة. أدب الاعتذار يتميز في معظمه بصدق العاطفة والإحساس، ربما يعترض معترضا على صدق العاطفة باعتراض اللصوص وقطاعي الطرق مثلا باعتذار من ألجأته الضرورة للنجاة. إذا وضعنا في الاعتبار أن المعتذر ما كان ليعتذر ترفا ولا إظهارا لمهارته الأدبية ولا إبرازا لمقدرته اللغوية وإنما تدفعه المواقف إذا أخذنا هذا وغيره بالاعتبار أدركنا صدق العاطفة حين أراد المعتذر ولم يرد غيره وحين تجرع الم الاعتذار ومرارته فأذل كبرياءه، إن ما ردده المعتذر من معاني إنما هو تعبير صادق عن الخواطر والمشاعر وهي تمثل في الآن نفسه حقيقة التجربة الأدبية في صورة فنية جميلة . قال ابن المعتز (تجاوز عن ذنب لم يسلك بإقرار طريقا حتى اتخذ من الرجاء عفوك رفيقا)[53].

قد يطلب من الأديب -أي أديب- في أجناس القول المختلفة أن يتقن ما يقول او يكتب وان يتخير ما استطاع من لفظ او معنى - ربما- وليس يطلب منه أن يقول حقا!! او أن يوافق رأياً او... فتلك قضية أخرى ربما تغاير طبيعة الفن. إظهار لصدق العاطفة يعتمد المعتذر على اللفظية الرشيقة والأسلوب السلس والتراكيب البعيدة عند الصخب والطنطنة مع الحرص على الإيقاع كقول سعيد بن عبد الملك (اكره أطال الله بقائك أن أضعك ونفسي وضع العذر والقبول فيكون احدنا معتذرا والآخر قابلا منفصلا ولكن اذكر ما في التلاقي من تجديد البر وفي التخلف من قلة الصبر واسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياك لما يكون فيه عقبى الشكر)[54]. بساطة واضحة في الأسلوب من خلالها يتوضح صدق العاطفة و(ليس ما يعيب الفن أن يكون تعبيرا عن جوانب النفس الإنسانية ما دام صادقا في تعبيره إنما يعيبه ألا يحسن التعبير أو لا يصدق فيه)[55].

المصادر والمراجع

1. القران الكريم
2. الأدب العربي بين البادية والحضر، د.إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى 1981م.
3. الأسلوب، احمد الشايب، الطبعة الخامسة مصر 1952م.
4. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، طبعة دار الكتب المصرية.د.ت.
5. جمهرة رسائل العرب، احمد زكي صفوة، مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى 1937م.
6. حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، د.يوسف خليف، مطبعة دار الكتاب العربي 1968م.
7. زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد اليماوي، مصر، د.ت.
8. لسان العرب، لابن منظور د.ت.
9. البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، د.ت.
10. الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصر 1947م.
11. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، الطبعة الأولى مصر، 1322هـ.
12. الصيغ البديعي في اللغة العربية، د.احمد موسى، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت.
13. العصر العباسي الأول، د.شوقي ضيف، مصر، الطبعة السادسة .د.ت.
14. العفو والاعتذار، للرقام البصري، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، مطبعة جامعة الإمام محمد بن مسعود 1981م.
15. العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق احمد أمين وجماعته، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1969م.
16. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الله، مصر .د.ت.
17. الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، للمبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، د.ت.
18. فنون بلاغية، د.احمد مطلوب، الكويت 1975.
19. المستجاد من فعل الاجواد، للقاضي التنوفي، مطبعة مصر، د.ت.
20. المقدمة لابن خلدون، المكتبة التجارية، مصر .د.ت.
21. الوساطة بين المتنبي وخصومه، للجرجاني، مطبعة الحلبي، مصر 1966م.
22. النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د.زكي مبارك، مطبعة دار الجيل بيروت 1975م.
23. الموازنة، للآمدي، تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف، القاهرة 1960م.
24. النابغة الذبياني، د.محمد زكي العشماوي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية د.ت.

الهوامش

1- لسان العرب :عذر.
* كذا البيت في الأصل.
2- العمدة 180/2.
3- ينظر الأدب العربي بين البادية والحضر ص 201 وما بعدها.
4- العقد الفريد 143/2.
5- الأدب العربي بين البادية والحضر ص272.
6- ينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري 39/2.
7- العقد الفريد 145/2.
8- المستجاد من فعل الاجواد ص261.
9- العقد الفريد 149/2.
10- الصيغ البديعي في اللغة العربية ص440 وما بعدها.
11- زهر الآداب ص574.
12- جمهرة رسائل العرب 300/4.
13- المصدر نفسه 299/4
14- المصدر نفسه 185/3.
15- جمهرة رسائل العرب 574/10.
16- فنون بلاغية ص27.
17- ينظر الكامل في اللغة والأدب 93/2.
18- ينظر الخبر كاملا في :المستجاد من فعل الاجواد ص20.
19- الأغاني 25/8.
20- جمهرة رسائل العرب 250/4.
21- جمهرة رسائل العرب 253/4.
22- جمهرة رسائل العرب 204/4.
23- المستجاد من فعل الاجواد ص117 وما بعدها.
24- العقد الفريد 146/2.
25- جمهرة رسائل العرب 144/2.
26- جمهرة رسائل العرب 256/4.
27- جمهرة رسائل العرب 251/3.
28- جمهرة رسائل العرب 251/3.
29- جمهرة رسائل العرب 298/4.
30- الشعر والشعراء 84/1.

31- الواسطة بين المتنبي وخصومه ص28.
32- النابغة الذبياني ص98.
33- جمهرة رسائل العرب 312/4.
34- العفو والاعتذار ص139.
35- العقد الفريد 141/2.
36- ينظر العمدة 176/2.
37- ينظر الأسلوب ص52.
38- المقدمة ص570.
39- المقدمة ص571.
40- جمهرة رسائل العرب 59/4.
41- جمهرة رسائل العرب 58/4.
42- جمهرة رسائل العرب 1351/4.
43- جمهرة رسائل العرب 251/4.
44- الحيوان 39/3.
45- جمهرة رسائل العرب 321/4.
46- ينظر الوساطة ص208.
47- العصر العباسي الأول ص443.
48- الموازنة للآمدي ص402.
49- جمهرة رسائل العرب 331/2.
50- جمهرة رسائل العرب 335/2.
51- جمهرة رسائل العرب 400/4.
52- البيان والتبيين 1/2.
53- جمهرة رسائل العرب 400/4.
54- جمهرة رسائل العرب 403/4.
55- حياة الشعر في الكوفة ص45.